هجرة يهود الاتحاد السوفياتي وديمغرافية الاستيطان في فلسطين

علاء سالم

تمثّل الهجرة اليهودية الى فلسطين المحتلة احدى الركائز الاساسية في المشروع الصهيوني، كما تمثل المبرّر الرئيس لاقامة اسرائيل كدولة يهودية تهدف الى لمّ شمل يهود العالم كافة بين جنباتها. وتتأكد مكانة الهجرة في الفكر الصهيوني، بصورة عامّة، من خلال الاهتمام الذي أبداه دافيد بن ـ غوريون بها، حيث احتلت الهجرة المرتبة الثانية في ثلاثيته، بعد الامن وقبل الاستقلال الاقتصادي. فاذا استثنينا استراليا، فان اسرائيل، حالياً، هي الدولة الوحيدة التي تقوم على الهجرة: نحو ٤٩,٣٥ بالمئة من سكانها ولدوا خارجها (حسب احصاء العام ١٩٨٧)[١]. وما زالت الهجرة الهاجس الاساس للقائمين على المشروع الاستيطاني لتحقيقه وتدعيمه. ولكن المعطيات الدولية تغيرت، بالاخص في العالم الغربي، حيث صار التعاطف مع اسرائيل، لدى يهود الشتات، والهجرة اليها، شيء آخر. كما لم تحدّ ظروف اسرائيل الاقتصادية والامنية من موجات الهجرة اليها فقط، بل دفعت بالنزوح (الهجرة المضادة) من اسرائيل الى خارجها، ممّا دفع مناحيم بيغن الى القول: «اصبحنا في حاجة الى كارثة، كالكارثة النازية، لدفع يهود الشتات الى الهجرة الى اسرائيل». فلا يزال اليهود المقيمون في اسرائيل يشكلون ١٩,٢٤ بالمئة من يهود العالم البالغ عددهم نحو ١٨٠٢٣٧٠٠ (احصاء العام ١٩٨٦)[٢]. ولظروف موضوعية عديدة تحيط بمسألة هجرة اليهود الغربيين، احتل «خلاص» اليهود السوفيات قمة أولويات العمل لرجال السياسة الاسرائيليين.

على الرغم من الهجرات اليهودية السابقة، فلا يزال التوزّع الديمغرافي بين الفلسطينيين واليهود في فلسطين المحتلة غير مختلط من حيث المبدأ. فهناك أغلبية يهودية واضحة في الغرب وامتدادات الشريط الساحلي نحو السهول الوسطى، وأغلبية فلسطينية مطلقة في الشرق، خصوصاً على سلاسل الجبال والتلال وانحداراتها نحو الوسط؛ كما ان هناك تجمّعات فلسطينية بارزة في الجنوب والشمال داخل «الخط الاخضر». وديناميّة وضع كهذا لا بدّ ان تؤدي الى اتجاهات انفصالية لمجموعة عن الاخرى، تنتهي بقيام كيان مستقل كما في حالة الضفة الفلسطينية وقطاع غزة، أو قيام استقلال ذاتي للاقلية، كما في حالة فلسطين المحتلة لعام ١٩٤٨، على غرار ما يحدث في مناطق عديدة من العالم، مثل ايرلندا الشمالية والباسك وغيرهما.

والوضع في حالة اسرائيل لا يختلف، بل ربما اكثر خطورة. فهناك شعبان، احدهما يهودي يحتل أرضاً يطالب بها الشعب الفلسطيني. والفوارق التي تفصل بين الشعبين كبيرة لا يمكن ردمها. انها فوارق دينية، وثقافية، ولغوية، وفي الاساس قومية. فالفلسطينيون هم جزء من اكثرية عربية في المنطقة. ولهذه الحقيقة ديناميّة وقوة خاصة بالصراع المصيري بين الجانبين. فالسكان الفلسطينيون